البعد القومي للشعر المعاصر في اليمن

مصطفى احمد عبود *

الملخص :

يهدف البحث الى توكيد النزعة القومية والنضالية في الشعر المعاصر باليمن . وتركز المقدمة على الترابط الوثيق بين الحس الوطني والحس القومي لرواد ثورة ١٩٤٨ في صنعاء ، مؤكدة أن معظم الثوار في اليمن كانوا من الشعراء ، مستعرضة شهادة الأديب العراقي هلال ناجي والشاعر اليماني عبد العزيز المقالح .

ولا ريب أن المعاني السخية للبعد القومي في الشعر المعاصر باليمن تتكشف في ادراكه المبكر لمركزية القضية الفلسطينية في الثورة العربية المعاصرة ، والعلاقة العضوية بين الوحدة والعودة . وتحاول الدراسة أن تبرز مجمل البعد القومي للشعر المعاصر في اليمن من خلال أربعة محاور :

١ ــ العرب والغرب الاستعماري .
٢ ــ مصر العروبة .
٣ ــ الوحدة والعودة .
٤ ــ عهد المقاومة .

ويستشهد البحث في مختلف المراحل بنماذج لكبار الشعراء في اليمن من أمثال الزبيري والبردوني وباكثير والشامي والبار والشرفي .

وقد اخترنا أن يكون مسك الختام قصيدة الشاعر عبد الله البردوني « أبو تمام وعروبة اليوم » تلك الرائعة الذائعة التي هزت مهرجان الموصل وأثبتت للشعراء العرب أن في اليمن شعرا وشعرا رائعا في هذا المستوى الجديد القديم .. الجديد الذي لا يتنكر شكله للمضمون الجديد ولا يرفض الجديد ارتداء الشكل القديم .

في مقدمة كتابه « شعراء اليمن المعاصرون » يقف الأديب العراقي هلال ناجي بإجلال أمام فروسية شعراء اليمن الذين كانوا طليعة موكب التضحية والفداء في ثورة ١٩٤٨ ، محييا استشهادهم بهذه الكلمات : « ما أعرف بين أقطار العرب كافة قطراً قدّم أغلى الضحايا من أدبائه على مذبح الحرية كالقطر اليمني في ثورته الرائدة على الملكية عام ١٩٤٨ .

لقد أعدم جلاد اليمن (أحمد حميد الدين) الشاعر زيد الموشكي والأدباء الأحرار أحمد المطاع ، وأحمد الحورش ، وعبد الوهاب الشماحي والبراق . كما أودع في سجونه الرهيبة الشاعرين : الحضراني والشامي ، وحكم بالأعدام غيابيا على الزبيري الشاعر الثائر .

ماذا أقول بل أن الثائر منهم كان يسير إلى ساحة الأعدام وهو ينشد شعرا كله رجوله كما فعل «العنسي » رحمه الله حين أنشد ساعة أعدامه :

كم تعـــذبت في سبيـــل بلادي ... وتعـــرضت للمنـــون مرارا
وأنـــا اليـــوم في سبيـــل بلادي ... أبـذل الـروح راضيـــا مختـــارا

.. صلاة على أرواح الأدباء اليمانيين الذين تساقطوا أنجما على درب الفداء ، وسلام على الأدباء اليمانيين الذين ما برحوا عبيرا في الأحياء » (ناجي ، ١٩٦٦ : ٦ ، ١٠)

ويشير الدكتور عبد العزيز المقالح في كتابه : « الأبعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن » الى الترابط الوثيق بين الحس الوطني والحس القومي لثوار ١٩٤٨ :

« كان معظم الثوار في اليمن من الشعراء ، وكان احساسهم القومي لا يكاد ينفصل عن احساسهم الوطني .. ، كما تجسد هذا الاحساس عمليا باشراك عدد من الشخصيات العربية من أقطار مختلفة في قيادة الانقلاب أمثال : الفضيل الورتلاني الجزائري ، وجمال جميل العراقي ، وعبد الحكيم عابدين ومصطفى الشكعة المصريين » (المقالح ، ١٩٧٤ : ١٧٦)

فلا غرابة إذن أن تكون الوطنية والقومية في اليمن صنوان ، ألم يكن قائد ثورة ١٩٤٨ وشهيدها العقيد جميل جمال عربياً من العراق ؟ فقد جاء شهيد العروبة من بغداد الى صنعاء ليعمل مدربا للجيش وكان إحساسه القومي وشعوره بما كان يعانيه شعبه العربي في اليمن هو الدافع لانخراطه في حركة الأحرار اليمنيين وقيادة الثورة ضد الحكم الامامي العفن : فلما حدثت النكسة قدم دمه بشجاعة نادرة قربانا لليمن التي أحبها وحاول أن يسهم في انتشالها من براثن التخلف والجهل . ولأنه شهيد العروبة فوق « أرض الجنتين » فقد كان شعراء اليمن الذين صاغوا رثاءه الموجع يتوقعون أن تبكيه الديار العربية والأقلام العربية كلها ، فلما سكتت وأحجمت فجر صمتها براكين اللوم الغاضب الذي عبر عنه أبلغ تعبير الشاعر ابراهيم الحضراني : (ناجي ، ١٩٦٦ : ٦٠)

أجمال ما بال العروبـــــــة لم ترع ... لما تحطـــم سيفهـــا الصمصام ؟
سكتت أسود الرافديـــن وأحجـــمت ... حيث السكـــون يعـــاب والأحجـــام

و « النيـــل » لم يظهـــــر أساه تحسرا مما عراك ولم يضج « الشام »
خفـــــرت مصابك ويلهـــــا أم أنها حسبتـــه جرحـــا مالـــــه إيـــــلام

ولعل ظروف العزلة الرهيبة التي كان يعيشها اليمن تحت قبضة الحكم الامامي قد حجبت عن أبناء العروبة رؤية الجرح العميق في مهاد قحطان !

وإذا كان للشعر الوطني في اليمن من دلالة فهي أن الوطنية الكاملة هي « وطنية العروبة » كما يؤكد شاعر اليمن الكبير عبد الله البردوني :

« فالوطنية الكاملة هي وطنية العروبة تنشأ مع ميلاد كل ثورة ، وتنمو حتى تصبح وطنية كاملة .. تحقق إنسانية كل قطر لتحقق إنسانية الأمة وتسهم بالتالي في صنع الانسانية وحماية حقوقها المشروعة » (البردوني ، ١٩٧٤ : ١٧٦) .

بهذه المعاني السخية يكون الوطني الجيد هو القومي الجيد ، هو الانساني الجيد . وما كان لشاعرنا الذي أفقده الجدري نعمة البصر وهو في السابعة من عمره ، أن يقدم لنا هذه الخلاصة الرائعة لو لم يكن مناضلا وطنيا صادقا عرف السجون الرهيبة وتحدى القيد والجرح مبشرا بالفجر ، فكان شعره وأدبه معجونين بأريج النضال الوطني اللاهب ، فها هو يصرخ في قيوده من أعماق السجن إبان العهد الامامي الأسود : (البردوني ، ١٩٧٠ : ١١٥)

هدّني السجـــن وأدمـــى القيـــد ساقي فتعايـــيت بجرحـــي ووثـــاقي
وأضعت الخطـــو في شوك الدجـــى والعمـــى والقيـــد والجرح رفـــاقي
سوف يفنـــى كل قيـــد وقـــوي كل سفـــاح وعطـــر الجـــرح باقي
سوف تهدي نارجرحـــي إخـــوتي وأعير الأنجم الوسنـــي احتـــراقي
فلنـــا شعب فمـــن ينكـــره ؟ وهـو في دمعـــي وسهـــدي واشتيـــاقي
أنـــا ألقـــاه شجونـــا ومنـــى فألاقيـــه هنـــا قبـــل التـــلاقي

ولا أرى مدخلا للحديث حول « البعد القومي للشعر المعاصر باليمن » أروع من كلمات البردوني رفيق الثلاثي « العمى والقيد والجرح » ، وهو يربط ربطا مبدعا بين فلسطين والوحدة .. بين وحدة النضال ونضال الوحدة .. بين الوطنية والقومية والانسانية :

« .. فقضية فلسطين مثلا تعتبر قضية كل عربي أولا ، وقضية كل إنسان ثانيا .. لأن العدوان الذي احتل فلسطين يمكنه احتلال صنعاء والرياض ، إذا لم يتوافر الاحساس بالنضال ويمتد جهد المقاومة . وعلى هذا فالوطنية الكاملة هي الاحساس بالمسؤولية عن قضايا الأمة عموما من المحيط إلى الخليج .. لأن فقدان جزء من الأمة يؤدي إلى فقدان بقية الأجزاء ، والحرية لا تتجزأ كقضية » (البردوني ، ١٩٧٧ : ٤٩٣) .

إن المعاني السخية للبعد القومي في الشعر المعاصر باليمن تتركز في أدراكه المبكر لمركزية القضية الفلسطينية في الثورة العربية المعاصرة ، والعلاقة العضوية بين الوحدة والعودة ، وسنحاول في هذه الدراسة أن نتتبع التطور التاريخي للشعر المعاصر في اليمن من خلال المراحل الأربع التي مر بها وسماتها البارزة .[١]

العرب والغرب الاستعماري

كانت المرحلة الأولى التي سبقت عام النكبة ١٩٤٨ ، هي « مرحلة الايقاظ » ، وكانت رسالة الشاعر تتركز في استنهاض الهمم والضمائر وايقاظ العرب من سباتهم لينتبهوا ويعوا أبعاد المشروع الجهنمي الذي أعده الغرب الاستعماري ؛ والذي دخل مرحلة التنفيذ مستهدفا اقتطاع فلسطين من جسم الوطن العربي ، وزرع جسم غريب في قلبه يكون رأس الحربة للأطماع الاستعمارية في الأرض العربية . ولم يكن غريبا أن يفجر شاعر اليمن وشهيدها أبو الأحرار محمد محمود الزبيري براكين غضبته على رأس بريطانيا ؛ هذه الامبراطورية الاستعمارية العجوز المحنكة في فن اذلال الشعوب وقهرها . صاحبة وعد بلفور المشؤوم ودولة الانتداب وحامية العصابات الصهيونية ، لهذا فإن الزبيري يرفع صوته ليفضح حقيقة « الكتاب الأبيض » الذي أصدرته بريطانيا حول قضية فلسطين ، مؤكدا أن هذا الكتاب الأبيض الأسود ليس سوى ثمن اقتطاع الأرض والعزة القومية ، ولم يكن اجتماع الدول العربية بلندن سوى التسوية المذلة للمأساة ففي قصيدته « في سبيل فلسطين » التي كتبها عام ١٩٤٠ يقول الزبيري : (الزبيري ، ١٩٦١ : ٢٥) .

فيـــا بريطانيـــا عودي بمخصمـــه ... ان العروبـــة لا شاء ولا نعـــم
إن العروبـــة جسم إن يئـــن له ... عضو تداعت له الأعضاء تنتقـــم
إن يضطهد بعضه بعضه فالكل مضطهد ... أو يهتضم جزؤه فالكـــل مهـــتضم
أتخرجـــون كماة العـــرب ويحكمـــو ... من أرضهـــم وهـــم الأبطـــال واليهم
ان الكتـــاب الـــذي جدتم به ثمنـــا ... لأرضهـم ليس يكـــفيهم اذا اقتسمـــوا
لم يحسبـــوه سوى أكفـــان عزتهم ... نسجتمـــوه لهم ظلمـــا وان زعمـــوا
ان الدمـــاء التـــي سالت بمديتكـــم ... لم يشفها منكـــم القرطـــاس والقلـــم
إن الخداع الـــذي دانت سياستكـــم ... به لأعظـــم ما تشقـــى به الأمم

ويقف الزبيري مذهولا أمام المفارقة الجارحة ، فالدول العربية تسعى لتختصم الى المستعمر الآثم في لندن الذي تآمر بشكل مفضوح على القضية وقدم فلسطين هدية للعصابات الصهيونية وأوغل في جهالته وظلمه للعرب : (الزبيري ، ١٩٦١ : ٢٥) .

ما للظلـــوم الـــذي اشتـــدت ضراوتـــه
في ظلمنـــا نتلقـــاه ونبتســـم

نرى مخالبـــــه من جرح أمتنـــــا تدمـــــى
ونسعـــــى إليـــــه اليـــــوم نختصم !

وما أشبه الليلة البارحة ، فالامبراطورية العجوز قد سلمت عصاها الاستعمارية للامبريالية الأمريكية وأصبحت واشنطون هي الحامية الأولى للكيان الصهيوني الغاضب ، وغرزت مخالبها في جراح أمتنا النازفة في فلسطين والجولان والضفة ولبنان .

واذا كان الزبيري قد اعتبر بريطانيا المسؤولة عن الفجيعة القومية ، فإن الشاعر حسين محمد البار يؤكد أن الغرب الاستعماري كله ضالع في الجريمة ، وقد دفعه حقده التاريخي على العرب لهذا المشروع الجهنمي الذي يحار فيه العقل : (البار ، ١٩٥٤ : ١٢٠) .

الى اللـــــه والتـــــاريخ ما فعـــــل الغـــــرب
فهـــــل من مجيب يا بنـــــي يعـــــرب هبـــــوا

أغـــــار على أرض البراق يسومهـــــا عذابـــا مذاق الموت في جنبـــــه عذب
قضي أن شعبنـــــا أنشأتها دمـــــاؤه يموت لكـــي يحيـــا على أثـــــره شعب
قضاء بحار العقـــــل في فهـــــم سره ويعجب من مشروع تنفيذه العـــجب

نضال المغرب العربي

ولكن تكالب الغرب الاستعماري على الأمة العربية لم يقتصر على المشرق العربي وحده بل ان المغرب العربي قد عانى أشد المعاناة من العسف الاستعماري وحقده التاريخي على العروبة . ولم يكن الشعر المعاصر في اليمن بعيدا عن تحسس آلام المغرب الكبير .

وقد عبر عن ذلك أبلغ تعبير شاعر العروبة الأديب الكبير على أحمد باكثير ، وهو يقيم جسرا يربط النضال العربي في مشرق الوطن ومغربه ، فلنستمع اليه وهو يحي علال الفاسي في منفاه ، وكان الفاسي في ذلك الوقت يقود الحركة التحررية في المغرب الأقصى ضد الاحتلال الفرنسي الغاشم :

ذكـــرتك ياعـــلال والنـــاس هجـــع ولـيس سوى جفني وجفنك ساهـــد
وللهـــــم حز في فؤادي قاطـــــع ولليـــــأس فتك في أمانـــــيّ حاصد
تكـــاد الدجـــى تقضي علـــيّ لأنها دجى العرب تاهت في عماها المقاصد
تداعت على قومي الشعوب فما ونت مصادرهـــا عن حوضهـــــم والموارد
اذا خاننا وغـــد من الغـــرب سافـــل تخيفنـــا نغـــل من الشرق حاقـــد

ويصب الشاعر والأديب العملاق صاحب « واسلاماه » براكين غضبته العربية على الغرب الاستعماري وعواصمه باريس ولندن وروما متوعدا إياهم بالويل والقصاص بعد أن استيقظ العملاق

العربي من نومه ليدحرهم « إلى ما خلف طوروس » ويلفظهم من جوفه ليطهر أرض العروبة من فجورهم ودنسهم :

اذا استيقظ العملاق من طول نومه
وراع الورى منه نبيّ ومارد
فيا ويل باريس وروما ولندن
ويا ويل قزم بات فينا يعاند
رجوعا الى ما خلف طوروس وارحلوا
الى حيث القت رحلهن المكايد
خذوا معكم إلحادكم وفجوركم
فليس بنام في ثرانا المفاسد
لنا ديننا الأسمى لنا مجدنا الذي
تتيه به الدنيا وتزهي المحامد
سنلفظكم من جوفنا ونقيئكم
كما قيء مسموم من الزاد فاسد

ويعود يناجي علال الفاسي ويبثه أساه لما يكابده من الآم بعد أن نفته فرنسا الى (الجابون) ، ويسخر من الاستعمار الذي ظن ان الفاسي وحيدا في الميدان وما علم بأن علالّ في صموده انما يمثل جماهير الأمة العربية الرافضة للاحتلال والذل :

ذكرتك يا علال فانتابني الأسى
أكابد من آلامه ما أكابد
كأني أنا المنفي دونك فاصطبر
فهذا شعور في بني العرب سائد
صبورا على البلوي شديدا على العدى
تهون عليه في الجهاد الشدائد
نفتك إلى (جابون) ألام دولة
لها عضد في المخزيات وساعد
لقد خالت العجفاء أنك واحد
أجل أنت في قدس البطولة واحد
ولم تعلم العجفاء أنك أمّة
تجاهد في استقلالها ما تجاهد

ثمانـــون مليونـــا يباهـــون كلهـــم
بخير لغـــات الأرض والذكـــر شاهـــد

ويشتد به الحماس والاعتزاز بأمته العربية فيطلق صيحته المدوية :

ألا كل شيء ما خلا اللـــه باطـــل
ألا كل شعب ما خلا العـــرب بائـــد

ان باكثير هو شاعر العروبة بحق فدينه « دين يعرب » وفي دمه يعيش سعد وعمرو وخالد ، والبعد القومي في شعره يعانق كل أرض عربية ، ويود أن يكون حضوره فعالا في كل ساحات النضال ، فهو ثائر في فلسطين وحسام مشهور في الاسكندرونه ورواعد في برقه والجزائر ، فتلك بلاده التي لا يفرق بينها :

لقـــد نلت يا علال ما رمت في العـــلي
وجـــد نزار بالـــذي نلت صاعـــد
وشتـــان ما حالي وحـــالك : حالم
صريـــع أمانيـــه وقـــرم مجالـــد
فآه كلانـــا شعـــر غير أننـــي
مقيم على ضيم وأنت مجاهـــد !
ولكـــن كلانـــا دينـــه ديـــن يعـــرب
وفي دمـــه سعـــد وعمـــرو وخالـــد
وددت لو أني في فلسطين ثائـــر
لأهلي تنعـــاني الظبّـــي لا القصائـــد
أو أننـــي في اسكندرونـــة قاصـــم
ظهـــور العـــدى والباتـــرات رواعـــد
فتـــلك بلادي لا أفـــرق بينها
لها طارف في مجد قومـــي وتالـــد
علـــيك سلام اللـــه ما ثار ثائـــر
ومـــا ذاد عن مجد العروبـــة ذائـــد

رحم الله علال الفاسي ابن المغرب والعروبة البار ، ورحم الله على أحمد باكثير ابن اليمن وحادي الركب العربي . ولا ريب ، أن للبعد القومي في الشعر المعاصر باليمن سمة بارزة ، فهو يتكشف ويتجسد حيث الثورة والمعاناة والألم . انه في الشام حين يضرب المستعمر برلمان دمشق . وفي العراق حين تكون أرض الفراتين ثائرة ، ومع شعب اليمن حين ينتصر لأخوته في العروبة ، ومع الأردن حين يطاله أذى الأعداء وعدوانهم وهو يتكشف ويتجّسد دوما في فلسطين . لقد عبر شهيد اليمن الشاعر محمد محمود

الزبيري عن مجمل هذه المعاني السخية « في قصيدته » تحية الخروج من العزلة وهو يتوجه الى أحد أمراء اليمن الملكية هو (الأمير عبد الله) بمناسبة أول رحلة يقوم بها خارج القطر ليحثه على الانفتاح على الوطن العربي الكبير ويذكره بمعاناته وجراحه النازفة في كل جزء من أرض العروبة :

سال جرح الشام فاضطـــــربت نجد ، وسحت له عيـــــون الكنانـــــه
وتنـــزى العـــراق غضبـــان كالليـــث إذا سامـــه الغبـــي المهانـــه
واستفـــز الشعب اليماني حفاظـــا فانـتضى سيفـه وهـــز لدانـــه
وشجـــى الأردن المصاب كأن قد دمـــر المعتـــدي له عمَّانـــه
وفـلسطين خبـأت جرحهـا الـدا مي وهـــبت لجارهـــا غضبانـــة
نكبـــة الشام وطـــدت برلمان الشام رغـــم العـــدى وأعـــلت كيانـــه
نكبـــة الشام وحدتنـــا فمـــا من عربي إلا بكـــى برلمانـــه
صار قلبـــا يحرك العـــرب العربـــاء ويجري في أرضهـــم شريانـــه

وتنتهي « مرحلة الايقاظ » والعرب بين اليقظة والنعاس ليفتحوا عيونهم على الفجيعة والنكبة عام ١٩٤٨ ، وهنا استدار الشعراء صوب مصر أكبر أقطار العروبة آملين ان تكون ثورتها (١٩٥٢ م) وعدا باسترداد الأرض والكرامة .

مصر العروبة :

كان عام ١٩٤٨ هو عام النكبة القومية والوطنية على السواء ، ففيه ضاعت فلسطين وقام الكيان الصهيوني الغاصب ، وفيه اغتيلت الثورة الأولى في تاريخ اليمن المعاصر . ولقد كان هناك شعور عميق بمرارة الفجيعة عبر عنه الشاعر ابراهيم الحضراني في قصيدته التي أشرنا اليها والتي تميزت بذلك اللوم والعتاب الصارم لأخوته في العروبة الذين لم يهزهم جرح العروبة في اليمن باعدام قائد الثورة العقيد العراقي جميل جمال الذي مهر بدمائه الزكية قومية المعركة وارتفع بالبر لأسمى درجاته وهي الاستشهاد .

وبقى الشعراء يجترون الحسرة المريرة في انتظار الغيث الذي ينعش أرض العرب المجدبة ، فجاءت النجدة من مصر أكبر أقطار العروبة ، وكانت ثورة ١٩٥٢ بمثابة الرد على النكبة والهزيمة ، فتوجه الشعراء بكل جوارحهم صوب « مصر العروبة » يتغنون بثورتها الرائدة ، مذكرين بدور مصر ومسؤولياتها القومية تجاه الأمة العربية كلها ، كما فعل الشاعر أحمد محمد الشامي في قصيدته « ثورة مصر » التي كتبها وهو نزيل السجن في صنعاء :

أيـــه يا ثورة أطـــلت على الدنيـــا ، فكـــانت أشعـــة ووقـــودا

أرسلي من لهيبك الحر نفحا : نحو شعب قد عاف عيشا زهيدا
وابعثيه على الطغاة شواظا جاعلا يجعل الجبال صعيدا
ها هنا أمة تئن وشعب يقطع العمر موثقا مصفودا

ويتوجه الشاعر في ختام قصيدته إلى اللواء محمد نجيب قائد الضباط الأحرار صانعي الثورة ، مزجيا اليه التحية العربية مقرونة بعهد الوفاء لثورة وادي النيل التي جاءت لتحنو على أمة العروبة وتداوي جراحها وآلامها بعد أن أرهقتها الخطوب الثقال : (الشامي ، ١٩٣٧ : ٢٢٥) .

واهد عنا إلى نجيب التحيا ت ولاء محضا وعهدا عهيدا
قل له أمة العروبة حيري تقتل العمر غفلة وجمودا
رعشت خطوها الخطوب الثقيلات فأحنت لها جبيناً وجيدا
فأشف آلامها ... وسدد خطاها واحد آمالها رشيدا ... حميدا

أما زعيم حركة الأحرار اليمنيين الشاعر الثائر محمد محمود الزبيري فإنه يغادر منفاه في الباكستان ليحتضن التراب العربي ويضع حدا للاغتراب فينزل ضيفا عزيزا على مصر بعد سقوط الملكية ، ليشم فوق ثرى أرض الكنانة ماضي العروبة المجيد (الزبيري ، ١٩٦١ : ١١٠) .

اليوم وافى بوادي النيل ماضينا نحس وقع خطاه في مغانينا
هبت له نسمات البعث وانطلقت تهز كل دفين هاجع فينا
لما استهلت على الدنيا بشاشته تلفتت أفق الدنيا تحيينا
يوم من الدهر لم تصنع أشعته شمس الضحى بل صنعناه بأيدينا
قد كونته ألوف من جماجمنا وجمعته قرون من مآسينا
نسيج أضوائه البيضاء دم عبق سالت به مهج الطهر المضحينا
فكل ثانية منه لو انتسبت عدت سلالة أسد من أوالينا
يأوي الى كل جرح من جوانحنا منه شعاع يعزينا ويأسونا

ولقد أصاب المقالح في معرض مقارنته بين قصيدة الزبيري التي أنشدها وهو ينزل ضيفا على مصر وتلك التي كتبها حينما نزل ضيفا على الباكستان :
« أعتقد أن صوت الزبيري وهو ينطق (اليوم وافي بوادي النيل) أكثر انطلاقا منه وهو يردد (وافي بباكستان) .. انه مع وادي النيل يشعر بأنفاس الجماهير وهي تلاحق الكلمات متنقلة معه من كلمة الى أخرى ومن بيت إلى آخر وتلك ميزة اللغة المشتركة والشعور القومي الواحد » (المقالح ، ١٩٧٤ : ١٧٩ ــ ١٨٠) .

الوحدة والعودة :

لعل النداء الحار الذي وجهه شعراء العروبة الى مصر الثورة ليضعوها أمام مسؤولياتها التاريخية

تجاه قضايا الأمة ، ولعل التأييد العارم المفعم بالحب الذي منحته الجماهير العربية لعبد الناصر ، وهديرها المدوي بالوحدة طريق القوة والعزة والعودة ، كان في طليعة الأسباب التي حدت بالرئيس العربي الراحل لأن يوقع بثقة واعتزاز وثيقة ميلاد الجمهورية العربية المتحدة (١٩٥٨) ، أول تجربة وحدوية في تاريخ العرب الحديث . كان ميلاد الوحدة معينا ثراً لحماس الجماهير العربية وانتعاشها الذي لم يشهد له التاريخ المعاصر مثيلا فقد كانت ترى في الجمهورية العربية المتحدة قاعدة النضال العربي وسبيل الخلاص القومي والاجتماعي والاقتصادي للأمة العربية .

وأخذت رؤى الحلم الكبير حلم « الوحدة والعودة » تتجسد حية فوق أرض الواقع . وكان الشعراء هم حداة الركب العربي الهادر بالوحدة والتحرير . فها هو « معرى اليمن » الشاعر عبد الله البردوني يحتضن في تربة المعرة « معرى الشام » ، ويعانق أجداده . بني غسان فوق روابي دمشق ، ويبث أهله في أرض الكنانة ما به من آلام وآمال : (البردوني ، ١٩٦٦ : ٤٣) .

إنـــا توحدنـــا هوى ومصائـــرا ... وتـــلاقت الأحبـــاب بالأحبـــاب
أترى ديار العرب كيـف تضافـرت ... فكـــأن صنعـــا في دمشق روابي
لاق الشقيـق شقيقـــه فاسألهمـــا ... كيف التـلاقي بعـد طول غيـاب !
اليوم ألقـى في « دمشق » بنـــي أبي ... وأبث أهلي في الكنانـــــة مابي
وأبث أجـــدادي « بنـــي غسان » في ... ربوات « جلـق » محنتـي وعـذابي
وأهـــز في ترب المعـــرة شاعـــرا ... مثلي : توحـــد خطبـــه ومصابي
وأعـود أسأل « جلقـا » عن عهدهـا ... بأميـــة وبفتحهـــا الغـــلاب
صور من الماضي تهامس خاطـــري ... كتهامس الـــعشاق بالأهـــداب

وإذا كان البردوني يقرأ في وحدة سوريا ومصر عراقة ماضي أمته وأمجادها ، فان الشاعر علي بن علي صبرة يستشرف في الوحدة الوليدة إطلالة المستقبل وآفاقه المشرقة فهو يلمح من فوق جبال اليمن تلك الدار التي ستكون مقرا لسكناه في « جلق » العرب ، ويرى ملامح أبيه في السنحات العربية لشيوخ الشام ، وكأن يد ناحت جبار قد نقلتها وأحكمت لمساتها فيمتزج الماضي بالحاضر بالمستقبل في هذه الصورة الساحرة : (صبرة ، مخطوط) .

إني لأعـرف أيـن يرقـد شارعـي ... من جلـق بل أيـن يصحـو داري
هذي الملامح من أبي هل يا ترى ... نقـلت بحكمـة ناحت جبّـار
سمراء كالصحـراء بكـر كالحمـى ... عربيـة قدت من الأحجـار
لكأننـي بالفـاتحين أخـالهم ... من كل أروع كالـردى مغـوار
يتقافـزون إلى الجهـاد كأنهم ... صبـح يشق حواش الأسحـار
وصدى أميـة لم يزل تهذي به ... بردى فيـا للمفتـري المهـذار
والداخل الأمـوى تلفـح مسمعـي ... أنفـاسه . وتصيـح كالأعصار

ما زال طعم الـروم يصرخ في دمـي ودم الصليبـيين في أظفـاري

ولا ريب أن تحقيق الوحدة قد حرك في النفوس هاجس الحلم الكبير .. « التحرير والعودة » عبر ملامح التضحية والفداء التي يشكل طليعتها أبناء فلسطين ، وهنا نلتقي بالشاعر البردوني في « يوم المعاد » مبشرا بالعمل الفدائي الفلسطيني قبل ميلاده بحوالي عقد من السنين : (البردوني ، ١٩٧٠ : ٨٧) .

يا أخي يا ابن الفدى فيما التمادي وفلسطين تنادي ، وتنادي
ضجت المعركة الحمرا ــ فقم تلتهب ... فالنور من نار الجهاد
ودعا داعي الفدى ، فلنحترق في الوغى ، أو يحترق فيها الأعادي
يا أخي يا ابن فلسطين التي لم تزل تدعوك من خلف الحداد
عد اليها لا تقل : لم يقترب يوم عودي قل : أنا يوم المعاد

تلك هي رسالة الشاعر المبدع ، فهو ليس ديوان الأمة فحسب بل أن شفافيته ترتفع به الى مستوى النبّوة ليستشرف بأمانه آفاق المستقبل ، فلقد « ضجت المعارك الحمراء » ودخلت الأمة العربية كلها مرحلة التحدي الرهيب فإما المقاومة أو قبول الأحتلال والذل .

عهد المقاومة

لم تطل فرحة الجماهير والشعراء بالوحدة ، فقد اغتالتها الأيدي الأثيمة في ذلك اليوم الأسود من أيلول عام ١٩٦١ ، وجاءت ثورة شعبنا العربي في اليمن ١٩٦٢ بمثابة الرد على الانفصال والانفصاليين حيث كانت الوحدة نداء الثورة الأول وتعبيرها عن الوفاء للقائد العربي جمال عبد الناصر . وهبت مصر الناصرية لمساعدة ثورة اليمن على مواجهة المؤآمرات التي يدبرها بقايا الحكم الأمامي المقبور والرجعية العربية . وفي أبريل ١٩٦٤ زحفت جماهير الشعب اليمني في كافة القرى والأرياف إلى صنعاء لتحتضن عبد الناصر في أول زيارة له لليمن . كان الشعراء حداة المسيرة الهادرة الجذلى بلقاء الثورتين العربيتين .

وقد ترجم هذه المشاعر الفياضة الشاعر محمد الشرفي في قصيدته « فرحة اللقاء » (الشرفي ، ١٩٧١ : ٩٦) .

أيا مصر يا موطن الثائرين ومهبط أحلامنا الوادعة
نلاقي بك اليوم في ناصر على اليمن الثورة الرائعة
فها نحن نرفع أسمى لوا من النصر فوق القوى الطامعة
ونقفز في خاطر الحاقدين عواصف أمادها واسعة
تقود الزحوف الى غاية تلوح عليها المنى الضائعة

وتشرق من خلفهـــــا وحـــــدة تسير الـــــدنى حولها طائعـــــة
تمد المواكب عبر الطريـــــــــق وتفرشهـــــا قبـــــلا ضارعـــــة

ولكن شمس الوحدة لم تشرق كما أراد لها الشاعر . ورغم الانتعاش الذي أحدثته ثورة اليمن ثم انتفاضة رمضان بالعراق وحركة آذار بسوريا ، إلا أن اقتتال القوى الثورية وتمزقها على امتداد الساحة العربية كان النذير بدخول العرب مرحلة النكسات حيث كانوا على موعد مع فجيعة حزيران ١٩٦٧ ، وسقوط سيناء وغزة والجولان والضفة الغربية في قبضة العدو الصهيوني .

وتحت وطأة الاحتلال تبرز رسالة الشاعر التي تتلخص في كلمة واحدة : « المقاومة » وفي ليل الهزيمة الدامس اتجهت أنظار الشعراء وقلوبهم الى رمز الاباء والتضحية الى الفدائيين الذين مثلوا ضمير الأمة ، وكانوا ردها الصارخ بالصمود والمقاومة . ولعل ديوان « الى الفدائيين الفلسطينيين » هو آخر العنقود فيما نشره المرحوم الشاعر لطفي جعفر أمان . وقد قدم قصيدته « الفارس المدحور » بهذه الكلمات : « في هذه القصيدة اتخذت من الفارس المدحور رمزا للرجعية المستحذية ، ومن موت الفارس العجوز تصعيدا للنضال الفدائي في فلسطين ، وانفتاحا لاستعادة الأرض المغتصبة . » (أمان ، ١٩٦٩ : ٢٩) .

الفارس المدحور ... مات
الفارس المدحور !!
فهبت الحياة
تهز في قبائنا
نسائم الضياء
تشق جبهة الجفاف والرواء
تجيش في البروق .. والرعود .. والأنواء
تحمل من يافا لنا
زيتونة صغيرة
زيتونة من زرعنا
ريانة نضيرة
تضيء في بسمتها النقية المثيرة
آمالنا الكبيرة
كرومنا ... ديارنا
تاريخنا الجديد
أطفالنا
كل شعاع فجرنا الوليد

كفاحنا الموتور في ثورتنا الملتهبة
إصرارنا
لنستعيد أرضنا المغتصبة
فاندفع النضال
والعتاد
والفدا ...
من خندق لخندق يهدر شلال دماء
فلم تعد آمالنا
تحيا على الهبات
ولم تعد خيامنا
في عرضنا عاهات
ولم يعد صراعنا
أفيوننا .. والقات
فالفارس المدحور مات
وانتفضت رياحنا
في رئة الحياة

رحم الله الشاعر لطفي جعفر أمان ، فلو امتد به زمنه لأدرك أن الفارس العجوز المدحور لم يمت بل استعاد صباه وحيويته وانضمت اليه « فرسان مدحورة » أخرى تعاونه في قتل نبوغ الشعب واشاعة أجواء التخاذل والاستسلام !

على أن الواقع المأساوي الذي تعيشه الأمة العربية اليوم ، « وعودة الروح » للفارس المدحور لا تقلل من القيمة التاريخية لهذه الومضة المتفائلة لشاعرنا الراحل .

ولعل خير مسك للختام في هذا العقد النابض بالأصالة والصدق هي تلك القصيدة الرائعة الذائعة : « أبو تمام وعروبة اليوم » تلك التي « هزت مهرجان الموصل وأثبتت للشعراء العرب والنقاد أن في اليمن شعرا ، وشعرا رائعا في هذا المستوى الجديد القديم ... الجديد الذي لا يتنكر شكله القديم للمضمون الجديد ، ولا يرفض الجديد ارتداء الشكل القديم[٢]

لقد وقف الشاعر عبد اللهالبردوني في مهرجان الموصل مغنيا .. منشدا ... باكيا وهو يخاطب أبا تمام ويبثه حديث الشجون حول « عروبة اليوم » في هذه المفاتحة الصميمة الموجعة : (البردوني ، ١٩٧٧ : ٧١ ــ ٧٢) .

ماذا ترى يا (أبـــا تمام) هل كذبت ... أحسابنا ؟ أو تناسى عرقه الـذهب
عروبـة اليـوم أخـرى لا ينـم على ... وجودهـــا اسم ولا لون .. ولا لقب

تسعـون ألفـا لعموريـة اتقـدوا ... وللمنجـم قالـوا : اننـا الشهب
قيل : انتظار قطاف الكرم ما انتظروا ... نضج العناقيد .. لكن قبلهـا التهبـوا
واليوم تسعون مليونـا ومـا بلغـوا ... نضجا ... وقد عصر الزيتون والعنب
تنسى الـرؤوس العـوالي نار نخوتها ... إذا امتطاهـا إلى أسيـاده الـذنب

إنها المفارقة الجارحة ! تسعون ألفا في « عمورية أبو تمام » يتحدون المنجم والتنجيم ويلتهبون قبل نضج العناقيد ، وتسعون مليونا في « عروبة اليوم » لم يبلغوا رشدا ولا نضجا وقد عصر العدو زيتون فلسطين وعنبها ! ولكن الشاعر لا يقف عند اعلان المفارقة بل أنه يسمو فوق الواقع ويؤشر أسباب النكبة القومية تلك « الرؤوس » التي سمحت بأن يمتطيها « الأذناب » ! ويمضي الشاعر في قصيدته « الحزيرانية » في تشخيص عوامل النكسة وتعرية المسؤولين عن المأساة : (البردوني ، ١٩٧٧ : ٧١)

حكامنـا إن تصدوا للحمـى اقتحمـوا ... وإن تصدى له المستعمـر انسحبـوا
هم يفـرشون لجيش الغـزو أعـينهم ... ويدعـون وثوبـا قبـل أن يثبـوا
الحاكمون و « واشنطون » حكومتهم ... واللامعون .. ومـا شعـوا ولا غربـوا
القاتلـون نبـوغ الشعب ترضيـة ... للمعتديـن ومـا أجـدتهم القـرب

وفي غمرة تشخيصه لمأساة الوطن الكبير لا ينسى « معرى اليمن » معاناة وطنه الصغير فيخاطب أبا تمام بهذه الأبيات التي تقطع نياط القلوب : (البردوني ، ١٩٧٧ : ٧٢ ــ ٧٣)

(حبيب) وافيت من صنعاء يحملني ... نسر وخلف ضلوعي يلهث العـرب
ماذا أحـدث عن صنعـاء يا أبتـي ؟ ... مليحـة عاشقاهـا : السل والجرب
ماتت بصنـدوق « وضاح » بلا ثمن ... ولم يمت في حشاها العشق والطـرب
كانت تراقب فجر البعث .. فانبعثت ... في الحلم ... ثم ارتمت تغفو وترتـقب
لكنها رغـم بخل الغـيث ما برحت ... حبلى وفي بطنها «قحطان» أو «كرب»
وفي أسى مقلـتيها يغـتلي « يمن » ... ثان كحلم الصبا .. ينأى ويقتـرب

إنها ثقة الشاعر بشعبه ، فاليمن حبلى رغم بخل الغيث ، ولا بد أن تلد البطل الذي يحمل إرهاصات الخلاص . ولكن البردوني لا يعرف غير « وطنية العروبة » فهو يستمد ثقته بشعب اليمن من إيمانه وتفاؤله بجماهير أمته العربية التي تحمل معاناتها الصامتة أعظم البشائر . أليس احتجاب السماء بشير بالغيث العميم ؟ (البردوني ، ١٩٧٧ : ٧٥ ــ ٧٦) .

« حبيب » ما زال في عينيك أسئلـة ... تبدو .. وتنسى حكاياهـا فتنتـقب
ومـا تزال بحلقـي ألـف مبكيـة ... من رهبة البوح تستحيي وتضطـرب
يكفـيك أن عدانـا أهـدروا دمنـا ... ونحن من دمنـا نحسو ونحتـلب

سحـــائب الغـــزو تشوينـــا وتحجبنـــا يومـــا ستحبـــل من إرعادنـــا السحب
ألا ترى يا « أبـــــا تمام » بارقنـــــا (إن السمـاء ترّجي حين تحتجب) .

الهوامش

١) حول مراحل الشعر اليمني من الناحية الموضوعية ، انظر : **الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن** ص ٤٧ .

٢) ورد ذلك في تقديم عبد العزيز المقالح لكتاب البردوني : **رحلة في الشعر اليمني** ، ص ٦ ، دار العلم للطباعة والنشر ، دمشق ، الطبعة الثانية ، ١٩٧٧م .

المراجع العربية :

أمان ، لطفي جعفر ، **الى الفدائيين الفلسطينين** ، عدن : دار الجماهير ١٩٦٩ .
البار ، محمد حسين ، **من أغاني الوادي** ، ديوان شعر ، ١٩٥٤ .
البردوني ، عبد الله ، ـــ **في طريق الفجر** ، ديوان شعر ، صنعاء : مكتبة الجيل الجديد ، ١٩٦٦ ، ١٩٧٠ .
ـــ **قضايا يمنية** ، دمشق : مطبعة العلم ، ١٩٧٧م .
ـــ **لعيني أم بلقيس** ، ديوان شعر ، دمشق : مطبعة العلم ، طبعة رابعة ، ١٩٧٧ .
الزبيري ، محمد محمود ، **صلاة في الجحيم** ، ديوان شعر ، القاهرة : ١٩٦١ .
الشامي ، أحمد محمد ، **الياذة من صنعاء** ، ديوان شعر ، القاهرة ، دار الكتب المصرية ، ١٩٣٧ .
الشرفي ، محمـــــد ، **أغنيات على الطريق الطويل** ، ديوان شعر ، الدار الحديثة للطباعة والنشر ، ١٩٧١ .
صبرة ، علي بن علي ، **مع القافلة** ، ديوان شعر ، مخطوط .
المقالح ، عبد العزيز ، **الابعاد الموضوعية والفنية لحركة الشعر المعاصر في اليمن** . بيروت ، دار العودة ، الطبعة الأولى ، ١٩٧٤م .
ناجـــــي ، هلال ، **شعراء اليمن المعاصرون** : بيروت : منشورات مؤسسة المعارف ، الطبعة الأولى ، ١٩٦٦م .

مصطفى أحمد عبوده :

★ حصل على دكتوراه الدولة في العلوم السياسية عام ١٩٧٨ من جامعة باريس .
★ مدرس بقسم العلوم السياسية بجامعة الكويت .